٩

الياس قنصل

دولة المجانين

أأنت من رعاياها ؟

لو كان في « المارستان » جميع الذين يستحقون شرف الاقامة فيه ، لخفّت زحمة الناس من شوارع كثيرة

دمشق - ١٩٥٥

منشورات دار الرواد

دولة المجانين

أأنت من رعاياها ؟

بقلم

الياس قنصل

لو كان في « المارستان » جميع الذين يستحقون شرف الاقامة فيه ، لخفت زحمة الناس من شوارع كثيرة

كم مرة عشقت في حياتك أيها القارىء ؟

مرة واحدة ؟

إذن انت معذور على جريرتك ، شأنك كشأن الرجل الذي يقدم لسبب أو لغير سبب ، على قتل غيره ، فيساق الى المحاكمة ، فيدافع عنه المحامي مدعياً ان المسكين لم يكن يعرف ان امساك الخنجر بصلابة ، واغماده في أحد الصدور الى قبضته تكون نتيجتها خمود الانفاس . ويفكر القاضي لحظات ، ويحك رأسه وليس فيها الا شعرات ، فيرى في هذا الدفاع ما يحمله على الرثاء لجهل القاتل ، فيبرؤه ، وينصحه بألا يعود الى مثلها

وإذا كنت عشقت مرتين أيها القارىء ، فجريمتك جديرة بالقصاص المرصود للذين لا تردعهم العبر ، ولا تردهم النصائح الى الصراط المستقيم

أما اذا كان قد أصابك العشق اكثر من مرتين ، فأقل عقاب تستأهله هو ان ترمى بالرصاص ، وتطرح جثتك للوحوش الكاسرة ، بعد أن تصادر أملاكك ، وتنسخ حقوقك المدنية ، ويمنع أولادك من الانتساب اليك

لا يحسب القارىء اني أنص على ما سبق لأني لم أعشق ،

وان هذه الصفحة هي نفثة المحروم الذي يؤلمه ان يتمتع السوى بما لا يتمتع به هو .

اني أود أن أكفر بهذه الصفحة عن ماضيّ المثقل بحوادث العشق . أو بعبارة اصح : لقد ثاب عقلي إليّ وأريد أن يعتبر الناس بي ، فان استطعت أن أفيد فتلك غايتي ، وإلا ...

إني أراجع الآن ما كنت اقوله وأفعله - وانا في لجة العشق - فاستخف بنفسي كل الاستخفاف ، وأخجل من براهين البلاهة التي كنت أقدمها ، وأتمنى لو تمكنت من أن أجرد من شخصي شخصاً آخر ، فأهوي عليه باللطمات الى أن يتصبب العرق مني ومنه .

ولقد جربت معظم السخافات : فشربت الشاي بلا سكر ، وتعاطيت السياسة ، وأكلت مربى البصل ، وشغلت وظائف في جمعيات ، ولبست المعطف في الصيف ، ورقصت ، وحاولت أن أصلح الانسانية ، أقول إني ارتكبت هذه الأمور كلها ، فلم أجد فيها شيئاً يشبه العشق لا من قريب ولا من بعيد . ولو أصبحت رئيس بلدية في مدينة يزيد سكانها على الألف ، لنصبت في ساحة من ساحاتها العمومية تمثالاً للعاشق ، وكتبت على قاعدته : « تكريماً للبلاهة البلهاء » .

منذ سنوات القى علي رجل سوداني درساً جليلاً لم أستفد منه إذ ذاك شيئاً ، فقد كان العشق متغلغلا إلى صميم عظامي ، والمرء - متى عشق - اختلت أمامه موازين الحياة ، وباتت نظرته

الى ما حوله ، غريبة ناقصة .

كنت ، تلك الليلة ، جالساً على مقعد خشب في حديقة عمومية ، أتأمل القمر وهو في تمامه ، فشعرت بكومة قد انحطت جنبي ، فحولت بصري ، فاذا رجل سوداني يبيع « الفستق » فاستثقلت ظله ، ولعنته في نفسي على قطعه مجرى أفكاري ، ثم عدت فاشفقت عليه ، فهو في الخمسين من عمره تقريباً ، تبدو على وجهه آثار المصائب التي اضطر الى احتمالها ، وتدل ثيابه الرثة ، ناهيك عن حرفته الحقيرة ، على فراغ جيبه من المعدن الذي يخترق العجائب

ولعله حزر ما جال في خاطري ، فأحب أن يسليني فقال :

ـ ما أشد الحر هذه الليلة !

ولم تكن الليلة حارة ، ولكن الكلام عن الطقس هو الباب الذي تلج منه الألسنة الى رياض الثرثرة ، سيان في ذلك الفستقي والفيلسوف .

فقلت :

ـ حقاً ، ان الحر شديد !

وسكت قليلا استجماعاً لخواطري وسألته :

ـ ماذا تبيع ؟

ولم يكن من حاجة لهذا السؤال ، فقد كانت سلة الفستق أمام الرجل وأمامي ، وهي مكشوفة الغطاء ، ظاهر ما فيها .

فأشار السوداني برجله اليها وقال :

ـ لقد كنت تحدق الى القمر فهل فيه من جديد ؟

ولم أنتبه أنا الى لهجة التهكم في سؤاله ، لأني كنت أنتظر سؤاله لأفرغ ما في دماغي من « الرومانطيقية » فقلت له همساً :

ـ الكلام بسرك : أنا عاشق!

فقلب السوداني شفته السفلى استهجاناً ، وتابعت أنا :

ـ إني أنظر الى القمر لأتسلى بالنظر اليه عن الافتكار بحبيبتي ، لا بل أنا أنظر الى القمر فألمح فيه ملامح من جمال حبيبتي : إن وجهها أشد استدارة منه ، وقضاتلها أنصع بياضاً ، والوصول اليها أصعب من الوصول اليه فضلاً عن أنه سمير العشاق ، ورفيق الهائمين . فما من عاشق على وجه الأرض إلا وله مع القمر أحاديث وأحاديث . إن مناجاة القمر ، يا عم ، هي بمثابة « ورقة الهوية » لمن ابتلاه الله بالعشق .

وكان العم مصغياً الى كلامي يتعجب ولا شك لعدم وجودي في المارستان ، واعتقدت أنا ، أن اصغاءه هو اهتمام بما أقول ، فاردفت قائلاً :

ـ أما سمعت « عبد الوهاب » في أغنيته « كلنا نحب القمر ، والقمر يحب مين ؟ » أما سمعت « بعيون » في أنشودته « وقفة أيها القمر نتشاكى » ؟ أما سمعت الشعراء الذين خصصوا للقمر القصائد المديدة ؟

والظاهر ان السوداني لم يكن قد سمع بعد ، لا بعبد الوهاب

ولا بغيره من مطربي الملوك ، بل كانت معارفه منحصرة في سلة فستقه . فهز رأسه انكاراً فسألته :

- وأين قضيت هذه الشيبة ياعم ؟ أما عشقت في حياتك مطلقاً ؟ الا تعلم أن العاشق يتفلت من قيود الزمان والمكان ، فيصبح وكأن الوجود كله له وحده ؟ ألا تعلم أن العاشق يترفع عن صغائر الناس فلا يعود يبالي بما تبالي به مخلوقات الله ؟ تقدم له القصر المنيف فيفضل عليه كوخا حقيراً ، وتمنيه بالسلطان الطويل العريض ، فيؤثر عله جلسة على ضفة ساقية وانحناء صفصافة . الا تشاهدني أنا ؟ ان في وسعي أن أقضي ليلتي هذه في دار من دور السينما ، ولكني أعرض عنها ، وأجلس على هذا المقعد لأراقب البدر ؟

فعاد السوداني إلى رأسه فهزه من جديد ، ثم وقف ، وركز شريط سلته على كتفه وقال لي :

- أما أنا ، يا إبني ، فاني أفضل على قمرك هذا قرصاً من أقراص الجبن .

وحمل سلته ، وابتعد عني

. . . . .

ومن المسؤول عن مضحكات العشاق ؟

الأدباء أولاً :

تناول أي كتاب لأي أديب فماذا تجد :

وصفاً مطولاً لما يشعر به العاشق ، وكلمات مرصوصة بعضها وراء بعض ، ينطلق بها لسانه

فان رحت تبحث عن هذا الأديب وتسأل : أيمكن أن يكون قد أحس هو نفسه في حين من الأحيان بما يصفه ؟

لم تلق الا النفي جواباً لسؤالك

امسك أية رواية لأي كاتب فماذا ترى ؟ التهويل والتطبيل حول العشق ، كأن العشق سلعة من هذه السلع التي لا تروج الا إذا سبقها الاعلان ورافقها التذييع

طالع أية قصيدة لأي شاعر ، ففيها آهات وراءها دموع ، وسهر ما يشبهه الم ، وهزال يتبعه موت زؤام

وأنا وأنت ـ نقرأ الكتب والروايات والقصائد ، ونصدق ـ لطيبة نفوسنا ـ ان هذا الذي يصفونه لنا هو العشق ، فنقتفي « تعاليمهم » ونتلقن « دروسهم » ، ويشاهدنا الجيران والمعارف والأصدقاء فيفعلون مثلنا ، وهكذا تتوالى حلقات هذه السلسلة التي لا نهاية لها .

كنت مرة أردد هذين البيتين وهما لمجنون ليلى :

أما عاهدتني ياقلب اني إذا ما تبت عن ليلى تتوب
فها أنا تائب عن حب ليلى فما لك كلما ذكرت تذوب؟

فخفت أن يصيبني ما أصابه ، وكنت في ذلك الحين عاشقاً ، خفت أن يذوب قلبي ، فأسرعت إلى طبيب صديق لي وعرضت عليه القضية ، وطلبت منه أن يجهز لي دواء يمنع ذوبان قلبي ، فتأملني ملياً تأمل الاشفاق وقال لي :

ـ ليست وظيفة القلب ، ياهذا ، تسجيل حرارة العشق . هو عضو كبقية الأعضاء في جسمك وان كان يفوقها جميعاً في أهميته ، وفي ديمومة عمله . إن جسمك أشبه ما يكون بمعمل من المعامل ، وقلبك هو لولب الحركة ، هو « البطارية » التي تدفع بالكهرباء الى سائر الآلات .

وأخذ حضرته يشرح لي ما يؤديه الفؤاد من المهام الدقيقة التي لا صلة لها على الاطلاق بالعشق ، فعاودني شيء من الطمأنينة

. . .

بيد ان المسؤولية في مضحكات العشاق ليست كلها على الاباء وحدهم ، اذ الحكومات في الدنيا مسوؤلة كذلك :

ان السرقة ممنوعة في كل ناحية من نواحي المعمور وفي كل ناحية من نواحي المعمور ، تقريباً ، يجازى اللص .

فلماذا لاتعمد السلطات الى وضع شريعة تمنع فيها العشق ؟ فان لم يكن في الامكان منعه بتاتاً فلا اقل من تنظيم تشريع دقيق له .

وها انا ابسط تصميم هذه الشريعة ، على ان يدخلها التعديل الذي لاغنية له مع الوقت :

يصح ان تكون المواد على هذا النسق :

أولا : العشق ممنوع .

ثانياً : كل الذين هم عشاق عند صدور هذا القرار ، تباح لهم مهلة اسبوع واحد ليصفوا عشقهم ويصبحوا كبقية الناس

ثالثاً : بعد انتهاء الاسبوع المذكور ، لايمكن لأحد ان يعشق الا برخصة من الحكومة .

رابعاً : على طالب الرخصة ان يقدم كشفاً مفصلاً بالاسباب التي تحمله على العشق . وعلى دائرة الحكومة المخصصة لذلك ان تمنحه اياها او ترفض منحها ، ولها ملء الصلاحية في ان تطلب منه الضمانات التي تثبت اقواله .

خامساً : كل من اراد الحصول على الرخصة ، وجب عليه ان يضع في البنك الفلاني كفالة قدرها مائة ليرة ترد اليه بعد الانتهاء من عشقه .

سادساً : تدوم مدة الرخصة شهراً كاملاً يجب تجديدها بعدها ويكون ثمنها ليرة واحدة ، وترصد المبالغ التي تجمع لبناء المارستانات اللازمة .

سابعاً : تخصص الحكومة لضبط هذه المواد دائرة ، كما تخصص المفتشين الذين يكون لهم الحق في ان يطلبوا من العاشق رؤية الرخصة متى ارادوا .

ثامناً : كل عاشق ، رسمياً ، يحرم عليه القيام بالوظائف التي تستدعي التفكير ، فان كان موظفاً . وعشق ، طرد من وظيفته في الحال

تاسعاً : جزاء كل مخالفة لهذه البنود عشر ليرات ، فان تكررت المخالفة تضاعف الجزاء .

الى آخر ما هنالك من المواد الرتيبية .

ورب سائل يسأل : وهل ينتهي العشق بوضع هذا القانون وتطبيقه ؟ ان معظم الشرائع التي وضعت لردع الناس عن السبل المعوجة وجد لها الناس مخرجاً ، وجعلوا من القانون نفسه تفاسير، تبرر إقدامهم على ما اقدموا عليه .

والجواب على ذلك هو :

ـ اذا عزمت حكومة من حكومات العالم على وضع هذا

القانون ، فلتعتمد علي في تنفيذه . اني المسؤول عن كل مخالفة له مهما كانت . فانا اعرف سائر اعراض العشق . انا اعرف العاشق من مشيته ، من نظراته ، من كلامه ، من سكوته ، من هيئته المطلية بالبلاهة . انا خبير بسائر الخزعبلات التي يلجأ اليها العاشق ليستر حالته ، منها انه يتظاهر بالتفكير بأمر هام ، ويكون تفكيره مقتصراً على حبيبته ، ومنها انه يسدد نظره الى نقطة معينة لا شأن لها حتى اذا حوّل الذين حوله ابصارهم اليها ، اغتنم الفرصة فمتع عينيه بالنظر الى معشوقته .

والعاشق على بلاهته خبيث ماكر

هاك دليلاً :

منذ عشرة اعوام تقريباً كنت عاشقاً ، وكانت حبيبتي فتاة غيورة ، بل كانت مثال الغيرة الصارخة ، فما وجهتُ عيني الى فتاة غيرها توجيهاً بريئاً الا احسست بشرر عينيها يلذع وجهي . وما ذكرت اسم امرأة - ولو كانت الاجيال العديدة قد انقضت على موتها - الا وقفت كاللبوة الجريحة تناقشني الحساب وهممت مرة بان اتركها ، ولكن كيف اتركها ؟ والله لو علمتْ بنيتي لكان اقل ما تجازيني به ان تعلق مشنقتي . واحتملتها - بكره اخاك لا بطل - مدة لابأس بها

وحدث ، اثناء ذلك ، حادث فيه شيء من الغرابة : خلاصته اني إستلمتُ رسالة من فتاة غيرها تؤكد لي اعجابها بشعري ،

وقد طوت رسالتها على رسم لها ، وطلبت مني ان انظم لها قصيدة وان انشرها في الصحيفة الفلانية ، ومتى طالعتها ، ووثقت باني ابادلها الحب ، أخبرتني عن اسمها ، وضربت لي موعداً للالتقاء بها

وتفحصت الصورة ، فوجدت انها جميلة جميلة .

ولبيت رغبتها

فنظمت قصيدة غرامية رنانة ونشرتها في الجريدة التي عينتها لي .

وما كاد يصل العدد الى ايدي القراء ، حتى طرق عليّ الباب طارق . وهذا التعبير ناقص ، اذ كان من الواجب ان اقول : ان يداً حاولت ان تحطم باب الغرفة التي كنت فيها ، فاسرعت الى فتحه ، واذا بحبيبتي الغيورة واقفة امامي

اتريد الحق ؟

لست اعلم حتى الآن كيف لم اقع مغشياً علي ، اذ ذاك ، فقد كان في نظراتها شيء اكثر من الغضب بكثير ، شيء لو ترجمته الى لغة الكلام لما استطعت تدوينه في هذا الكتاب

ودخلت دون ان ادعوها ، وكانت ترتجف كالورقة حيال العاصفة.

فابتسمت لها ابتسامة فيها الاسترضاء

واندلعت من فمها كلمات التعنيف والتوبيخ

وارتفعت اصابعها مهددة متوعدة

فتظاهرت بجهل السبب الذي حملها على الغيظ

فسألتني عن القصيدة وعن « صاحبة القصيدة »

فقهقهت طويلاً ، وجلست على كرسي بالقرب منها ، وربت كتفها وقلت :

ـ انك بسيطة القلب ، طاهرة النفس ، او تحسبين ان تلك القصيدة هي تغزل بفتاة ؟ معاذ الله! ان سوء ظنك هذا هو الكفر بعينه . ان هذه القصيدة هي تغزل بالعزة الالهية على طريقة ابن الفارض ، فانا رجل متصوف قد ارتفعت نفسي عن صغائر الناس . واندمجت ذاتي الصغرى بالذات الكبرى التي تغمر الكون برمته ، ولم يعد لي وجود حي الا وجود الفكرة في دماغ المخلوق . اني ابحث الآن عن الحق الاكبر ، فاعتنقه حيث وجدته ، واحاول ان اجلوه للناس بالكلمات العادية فلا استطيع ولو استطعت لما استطاع الناس فهمه ، ولذلك الجأ الى الاحاجي والمعميات والرموز : اوما طالعت ديوان ابن الفارض وهو اقرب الصوفيين الى العقول البسيطة ؟ اوتعتقدين انه ـ وهو على جلال قدره ووقاره ـ يعمد الى هذا الغزل والى هذا النسيب ؟

وتمكنت عباراتي ـ او ترهاتي ـ هذه ، من تهدئة ثائرة غضبها ، غير انها ارادت ان تتأكد من صدق ما قدمته لها ، فتناولت عدد الجريدة في الصفحة المنشورة فيها القصيدة ووضعت اصبعها على بيت من ابياتها فإذا هو هذا :

وقد شاقني حسن من الرسم مشرق
الى روعة هيهات ترسمها يد

فقالت :

ـ الست تعني بهذا البيت ان الرسم الذي ارسلته هي اليك قد اهاج شوقك الى رؤيتها ؟

فاسرعت الى اجابتها :

ـ كلا والف مرة كلا ! ان الذي اعنيه بهذا البيت هو : ان الاشياء التي بدعتها يد الله والتي نراها امامنا مبرهنة على قدرته التي لاحد لها ، ان هذه الاشياء ـ من جماد ونبات واناسي وفيها كلها منتهى مايصل اليه الجمال ، إن هذه الاشيـاء ليست شيئاً على الاطلاق ، اذا قسناها بما تقدر عليه يد الخالق العظيم وانا وقد تأملت بابداعه تعالى اصبحت بشوق الى ان يطويني التراب لعلي الم بابداع الله الذي ضن به على هذا الكوكب السيار الذي يسمونه الارض

وكنت اتظاهر وانا اوصف هذه العبارات « بالانخطاف الروحاني » اي اني اغمض اجفاني ولا افتحها الا للنظر الى فوق كأني اعاين قدرة الله .

فقالت لي فتاتي بعد تفكير قصير :

ـ ولكن ، لماذا تتمسك بهذا الدوران الذي يضيع فيه العقل؟ لماذا لا تذكر العزة الإلهية صراحة بدلاً من ان تشير اليها بالرموز والطلاسم والاحاجي ؟

فاجبتها :

ـ لقد سلك المتصوفون جميعاً هذه الطرق ، فغدت المعميات «ماركة» مسجلة لهم ، ولا يسعني انا ان اخالفهم . ولو خالفتهم لما آمن بصوفيتي احد

ومحت كلماتي هذه آخر اثر من الشك في نفسها

وقد سلمني هذا التصوف منها ، ونجاني من براثنها . فبت كلما قابلتها تظاهرت بالتصوف ، فان حدثتني عن السينما ، حدثتها عن قوة الحق العليا . وان كلمتني عن النزهة ، كلمتها عن الاندغام في الذات الصمدانية . وان أثنت على زي من ازياء الفساطين . مدحت مقاييس الزمان والمكان

وضجرت هي اخيراً :

فجاءتني في صباح جميل ، وصرخت في وجهي :

ـ لقد ازهقت روحي بتصوفك ، فاما ان تختار العزة الالهية ، وما ان تختارني .

فآثرت العزة

ولو انها خيرتني بين غيرتها وبين بوريس كرلوف لما ترددت مطلقاً ، ولرافقت صاحبنا راضياً .

وقد سقت هذه الحادثة لأقول اني خبير بدهاء العشاق . وان اعتماد الحكومات علي في وضع قانون العشق ، يفضي الى افضل النتائج مادة وادباً .

ظهر للقارئ مما تقدم ان المسؤولية في سخافات العشاق تقع على الادباء اولاً ، وعلى الحكومات ثانياً ، وازيد على ذلك : ان الاقارب مسؤولون ايضاً .

لنفرض انك عشقتَ ، وان عقوبة الحكومة لم تؤثر عليك ادنى تأثير . فما العمل لردّك الى نهج العقل ؟

يعقد اقاربك مؤتمراً ، ويعرض واحد منهم حالتك على بساط البحث ، فيحكم عليك الجميع بانك مجنون ، ويكلفون اكبرهم سناً بان ياتي بطبيب ليفحصك ، ويجيء الطبيب فيحكم عليك بانك مجنون ، وبان جنونك فيه الخطر . وما هي الا برهات ، حتى تكون عربة المارستان واقفة على باب دارك تنتظر خروجك الميمون . ولا تخرج حتى ينقض عليك رجلان ، يكبلانك بالحديد ويسوقانك الى حيث يرحب بك زملاؤك ...

وآخر سهم من المسؤولية على بقية الناس ، فلو كانت في رؤوسهم ذرات من العقل ، لتركوا اعمالهم ومهامهم — متى شاهدوا احد العشاق — ولحقوا به ، فان مشى مشوا وان وقف وقفوا ، واخذوا يصفرون له تصفيراً متواصلاً ويشيرون اليه

باصابعهم كما يشير الوالد ايلفت نظر ابنه الى وحش من الوحوش في حديقة الحيوانات .

والعاشق الذي يحمل هذه التجارب الثلاث :

ضخامة العقوبة ،

وجفاء الاقارب ،

وهزء الناس ،

ويخرج منها كلها سليماً معافى ، ويظل على رغبته في العشق، تضرب عنقه في ساحة من الساحات العمومية ، وان الله يحب المحسنين

• • •

قد يحسب البعض ان انطواء العشق معناه انتشار البغض ، فان حسبوا ، فالذنب على قصور مداركهم ، لا عليّ ولا عليك ايها القارئ

ان انطواء العشق معناه انتشار الحب .

والفرق بعيد بين العشق والحب ، بعيد جداً !

الحب هو العاطفة الطبيعية المعتدلة تتوثق بواسطتها الصلات . وللحب الفضل الاكبر في كثير من مظاهر التقدم والحضارة التي نتمتع بها .

اما العشق فهو العاطفة الجامحة التي لا ترى او التي لا تريد ان ترى

الحب هــو النسيم الذي يهب على الوجوه لطيفاً ، فتنتعش له النفوس

والعشق هو العاصفة الهوجاء التي تنشر الفوضى حيث تحل

الحب هو الغيث المتزن الذي يمحو وعيد المحل ، ويبث في النبات نضرته ورواءه .

والعشق هو الطوفان الذي لا يضبطه قانون ، ولا يقبل شفاعة حذرٍ

. . .

كنا مرة أربعة نتحدث : سليم ، وسلمان ، وسليمان ، وأنا . والثلاثة المذكورون في مثل عمري . ومتى شاهدت شباباً يتحدثون فاحكم - تسعون بالمئة - بان للمرأة القسم الاوفر من عناية البشر .

قلت ، وأنا التفت الى سليم :

- ما هو أغرب ما تستطيع أن تقصه من حوادث العشق التي جرت معك ؟

قال :

- اسمع :

لقد عشقتها عشقاً لك ان تسميه جنوناً ، فتظل التسمية قليلة . كانت ساعات نهاري موقوفة على التفكير بها ما خلا الدقائق التي يقترب فيها ميعاد الطعام . وكنت أحلم بها الا في الليالي التي أثقل فيها على معدتي بالآكال . والغرابة في الأمر اني عشقتها دون أن أعرفها ، عشقتها دون ان أرى لها وجهاً ، فصدق بي قول الشاعر :

والاذن تعشق قبل العين أحياناً

كنت يوماً في ادارة المجلة التي أحرر فيها ، فرن جرس الهاتف ، فتناولت السماعة ، فاذا صوت انثوي لطيف يسأل إذا كان قد انتهى صنع الحذاء ، فعلمت ان الرقم التلفوني الذي طلبته

مغلوط، فلم أشأ أن أقطع الاتصال. فقلت لصاحبة الصوت اللطيف:

ـ أيتها الآنسة الساحرة، ان الرقم الذي تخاطبيه، هو رقم المجلة الفلانية. ولكم اتمنى ان تتحول هذه الادارة فوراً الى معمل أحذية، وأن تكون مهمتي في الحياة قياس الاقدام بدلاً من تحبير المقالات لأظل اسمع هذه اللهجة ـ لهجتك الفتانة ـ

والظاهر أن عباراتي راقت لها، فتعالت ضحكتها وقالت:

ـ أأنت صادق فيما تقول، أم انك تطالع هذه الكلمات في رواية أمامك؟

فاقسمت لها ان نبرتها فتنتني، وإني واثق أن صاحبة مثل هذا الصوت لا بد ان تكون آية من آيات الجمال

وخفت ان تقطع هي الحديث على حين فجأة، فقلت لها:

ـ لعلي أضيع عليك وقتك الثمين؟

فقاطعتني بقولها:

ـ كلا! لقد فرغت من أعمالي، ولم يعد علي الا الخروج للنزهة مع جارتي، انما حديثك الذ من أية فرجة كانت.

والخلاصة: ان العلاقات العذرية تمكنت بيني وبين صاحبة الصوت الفاتن تمكنا مكيناً، وسألتها عن اسمها فلم تشأ أن تخبرني عنه، بل قالت لي: إختر الاسم الذي تريد وناديني به. وسألتها عن رقم الهاتف في بيتها، فرفضت كذلك اطلاعي عليه بحجة أني قد اكلمها في وقت، يكون والدها في البيت.

على أنها وعدتني بان تخاطبني في اليوم التالي

وصدقت في وعدها ، فتحدثت واياها طويلا وعرفت من كلامها انها في مقتبل الشباب وان لا خطيب لها ، وان والدها رجل ظالم يضيق عليها الحياة ، ولا تخرج الا مصحوبة بمن يثق به . وعدت فالححت عليها بان تخبرني عن اسمها الحقيقي وعن مطرح دارها لأمرٌ عليها فاراها فلم تقبل .

وعادت الى حديثي - كما وعدت - في اليوم الثالث ، فاستفسرتْ عن حياتي فاخبرتها بالتفصيل .

واصبح الهاتف يرن كل يوم تقريباً في ساعة معينة ، فاتناوله واروح اتحدث الى تلك الفتاة الساحرة ، وقتاً طويلاً حتى تتعب يدي .

ومرت الايام ، ونحن على تلك الحالة : ليس بيننا الا الكلام تلفونياً .. والحق اني كنت انتظر مخاطبتها على احر من الجمر.. واصبحت الحياة عندي مرتكزة على المواعيد « الكلامية » التي تضربها لي

لقد عشقتها عشقاً هو الجنون او اكثر ، وليس ادل على ذلك من الهزال الذي اعتراني ، اذ نقص وزني نقصاناً أشاع الخوف في قلوب انسبائي عليّ

وصممتُ ، في يوم من الايام ، ان اطلب منها مقابلتها عياناً. وان ارفض اي عذر تقدمه لي .

ورن جرس الهاتف ، فاطلعتها على رغبتي ، فلم تقبل ، فقطعت الحديث ووضعت السماعة مكانها من الآلة . فعادت الى الكلام ، فعدتُ الى قطعه . ولم تر بداً من الاذعان فقالت

ـ طيب : اين تريد ان نلتقي ؟

قلت :

ـ حيث ترغبين . ايطيب لك ان يكون لقاؤنا قبالة الرقم ٥٥٠ من شارع « س » عند الساعة الثالثة بعد الظهر ؟

قالت :

ـ ولكن كيف أعرفك ؛ وكيف تعرفني ؟

قلت :

ـ هذا أمر بسيط : تحملين أنت وردة حمراء كبيرة ، واحمل انا تحت ابطي جريدة مطوية . ولا تنسي يا آنستي ان القلوب شواهد ، واني أستطيع تمييزك بين مئات الصبايا .

فضحكتْ وقالت :

ـ الى اللقاء

كانت الساعة التاسعة صباحاً ، وكانت هواجسي كلها عن لقائي القريب بها ، وقد اتسعت الدنيا أمام عيني ، وباتت جميع الاشياء عندي ذات معنى غير معناها الحقيقي .

وأخذت أتمثلها :

أهي شقراء أم سمراء ؟ ما لون عينيها ؟ كيف تصفف شعرها ؟

وأخيراً ، تم الاتفاق بيني وبين خيالي على أنها معتدلة القامة ، عامرة الصدر ، نحيلة الخصر ، لها ساقان ممشوقتان ، وشعرها كستنائي اللون ، وعيناها سوداوان تلمعان ببريق غريب ، وأنفها روماني ، وسائر تقاطيع وجهها وجسدها متناسبة تناسباً هو الفتنة بعينها

وبعد أن انتهى خيالي من وضع هذه الصورة لها ، أخذت أهيء الكلمات التي سأقولها لها ، وهمني ان تكون العبارة الأولى التي ستسمعها مني في لقائنا ، عبارة شعرية جميلة ، واستعرضت جميع ما في خزانة دماغي ، فوجدتها كلها من سقط المتاع ، وقد لاكتها الألسنة حتى تركتها كالخرقة اللق

ماذا أقول لها ياالله ؟

ـ اني أهواكِ من كل قلبي .

لقد رددت على مسمعها هذه الجملة بالهاتف مراراً عديدة .

ماذا أقول لها ؟

وعجزت عن العثور على ما أريد ، فتركت ذلك للمفاجأة .

لا بد أن تلهمني رؤيتها ما يجب عليّ قوله . ناهيك عن أن اهتمامها بي لن يترك لها فرصة للانتباه الى ما أقول .

واقترب الموعد

فهل من حاجة الى الاشارة بأني ارتديت أفضل ثيابي .

ني لبثت ما يقارب نصف الساعة امام المرآة ، وأنا أحسن
دامي ، وأرش العطور على جسمي كأن في داخلي جيفة اخاف
يخترق عفنها الانوف
ووضعت تحت ابطي كدسة من الجرائد
وسرت باسم الحب مجراي .
واقتربت من مكان الموعد ، فـــكاد قلبي يشق أضلاعي ،
يطير الى عالم اللانهاية
هاهو الرقم ٤٥٠ من شارع س
هاهو الرقم ٥٠٠
هاهو الرقم ٥٥٠
وكانت الساعة الثالثة تقريباً
ورفعت يدي الى رأسي لأصلح شعري ،
ودرت بنظري فجأة الى اليمين ،
فاذا هي ...
وحدثتْ المسألة .
ومهما حاولت الآن الاسراع في سرد ماجرى ، فلن ألحق
بالسرعة التي جرى فيها .
ما كدت اتميزها حتى رميت الجرائد التي كنت اتأبطها ،
ورجعت من حيث اتيت ، راكضاً
ولو رآني اذ ذاك شرطي ، لما تقاعس عن اللحاق بي ظناً
منه بأني لص او قاتل .

وظللت اركض نحو ربع ساعة الى ان وثقت بانها لو ارادت ان تتبعني لما استطاعت .

ووقفت لاستريح قليلاً ، وانا خائف ان تكون ورائي غضب الله عليها !

لو لم اشاهدها لما صدقت ان مظاهر القبح تجتمع كلها في امرأة كما اجتمعت فيها .

لقد كانت التجاعيد تعلو محياها فتجعله كأنه رقعة نسيج مغسولة غير مكوية ، وكان انفها مائلاً الى اليسار ميلاناً يلفت النظر ، ولها شبه لحية تبدو واضحة لمن اراد ، على الرغم من عنايتها بحلاقتها ، أما جسمها ، ماذا اقول ؟ جسمها ؟ لو قسمه الله بانصاف ، لجبل منه ثلاثة افيال معتدلة

ووصلت الى الدار وأنا أشتم خيالي ، وشعرت بقرف من نفسي على ما كنت اتمثل فيها من الجمال ، وأصبحت من ذلك اليوم أنفر من التلفون نفور السليم من الاجرب ، ولا أتناوله الا لأمر هام . وقد عرفت الخبيثة رأيي فيها فلم تعد الى مخاطبتي قط . اه

هذا ماقصه ذلك الزميل علينا

بقيت نهاية القصة واست أعلم اذا كان أغفلها قصداً أم لا فاذاأردت ، أيها القارىء الكريم ان تعرفها ، فتعال معي إلى دار تلك المرأة التي عشقها صاحبنا سليم من لهجتها اللطيفة في التلفون :

الساعة الثانية تقريباً من نهار الموعد

لقد أحسنتْ هندامها ، وعطرتْ ثيابها ووقفتْ أمام المرآة ساعة أو أكثر ، وراحت تتساءل كيف يكون حبيبها الذي ستراه بعد قليل ، وأخذت تضع له الرسوم المختلفة ، واتفقت أخيراً هي وخيالها على أنه طويل القامة ، رشيق الحركات ، جميل الوجه ، خلاب القسمات

وقرب الموعد ،

فسارت باسم الحب مجراها ، والزهرة الحمراء بين أصابعها

ودنت من المكان المعين

هاهو الرقم ٤٥٠ من الشارع س

هاهو الرقم ٥٠٠

هاهو الرقم ٥٥٠

وكانت الساعة الثالثة

ودارت بنظرها فجأة الى اليسار ،

فاذا هو ...

وحدثت المسألة كلمح البصر

فما كادت تتميزه حتى رمت بالزهرة على الأرض، ورجعت أدراجها، ووقفت بعد قليل لتستريح وهي خائفة أن يكون لحق بها

لعنة الله عليه !

لو أراد نحات أن يصنع تمثال القبح ، لما احتاج الا الى صورته

هو قصير القامة ، تفرقت الشعرات في رأسه كأنها خيام العرب ، فمه شبيه بفوهة بركان

ووصلت العاشقة الى الدار وهي تشتم خيالها على الصورة التي وضعها له ، وشعرت بنفور من نفسها على ما كانت تمثله فيه من القسامة ، وغدت من ذلك اليوم تنفر من التلفون نفور السليمة من الجرباء ، ولا تتناوله الا لقضية هامة .

ثم التفتُ الى زميلي الثاني ، سلمان ، وقلت له :
ـ وانت ، ما هو اغرب ما جرى معك ؟
فقال :
ـ هاك :
كان من عادتي ، بعد الانتهاء من عملي ، ان اقصد الى مقهى في زاوية شارعين ، فاجلس خارجه ، في مكان معين ، لا أبدله بغيره ، فاتناول فنجاناً من القهوة ، واظل ما يقارب نصف الساعة ، وانا اسرح نظري في المارة . وعرف صاحب المقهى ورواده عادتي ، فكانوا يحترمون مكاني ، فأجده اغلب الاحيان خالياً ، فما اجلس حتى يكون الخديم قد جاءني بالقهوة .
وفي يوم ـ وانا كعادتي ـ مرتْ امامي حافلة كهربائية استرعى انتباهي سائقها الجديد وهو رجل في العقد الخامس من عمره ، ضخم الجثة ، له شاربان طويلان عريضان عميقان ، يشغلان مكاناً فسيحاً من وجهه لو باعها بالكيلو ، وكان ثمن الكيلو ليرة لما احتاج الى العمل بقية حياته . وقد اعتنى بفتلها ، ورفع طرفيها ، فوقفا كأنهما يتحديان النجوم .
ولم اتمالكْ من الابتسام ، ولحظ هو ذلك مني فالقى علي نظرة غضب ، وحرّك شفتيه تحريكاً لا يتكون منه الا ما يشبه السباب . فراقني منظره وهو في سورة الحنق ، فهززت راسي ورفعت اصابعي الى وجهي ، وتظاهرت باني افتل مكان شاربي ، فثارت ثائرة الرجل .

فأعدت فعلتي ، وانا واثق انه لايستطيع ان يترك قيادة الحافلة الكهربائية

وذهبت في اليوم الثاني ، الى مكاني المعتاد ، فمرت الحافلة المذكورة يقودها صاحب الشاربين . وتظاهر بعدم الانتباه لي . فصفرتُ له . فالتفت ، فكان موقفي معه في ذلك النهار كموقفي في النهار السابق ، وتميّز المسكين غضباً . ولم يكن بوسعه ان يثأر مني، وأقسم انه لو تمكن من ازاحة الحافلة عن خطها لما تقاعس مطلقاً عن دهسي ، فلم يكن يفصلني عنه سوى عشرين متراً تقريباً .

وحاول في اليوم الثالث ان يترك قيادة الحافلة ، فلحظت مرامه ، فتركت مكاني وابتعدت ، وعاد الرجل الى عمله وهو حائر في امري.

وذهبت في اليوم الرابع الى محلٍ يبيع الثياب المسرحية ، فاشتريت شاربين يعادلان شاربيه ووضعتها في جيبي

وما كادت الحافلة تطل من البعيد ، حتى ركزت الشاربين على شفتي العليا . وابصرني السائق المسكين ، فجن جنونه ، وتطايرت في الفضاء شتائمه

وخلاصة القول ان السخرية من ذلك الرجل باتت غاية من غايات حياتي ، فكنت اقضي ساعات النهار الاولى وانا انتظر ميعاد ذهابي الى المقهى

فقلت لصاحبي سلمان :

– لقد طلبت منك ان تقص علينا اغرب حادثة عشق ، وانت تاتينا الآن بقصة لا علاقة لها البتة بما طلبت

فاجاب :

ـ الحق معك . فها هي قصة من قصص عشقي :

عرفتها في ادارة البريد ، اذ كانت تتولى بيع الطوابع ، فملكني جمالها وسحرني لطفها ، فاصبحت اشتري كل يوم طابعاً دون ان اكون بحاجة اليه ، وقصدي ان اراها . وعرفتْ هي مناورتي ، فكانت متى شاهدتني قادماً ، امسكت الطابع وقدمته لي قبل ان اطلبه ، وهي تبتسم لي ابتسامة فتانة . وقد بدأت بمخاطبتها مرة ، فوضعتْ اصبعها على فمها اشارة الصمت . وهداني التفكير الى وسيلة طيبة: ما عليّ اذا انتظرت انتهاءها من العمل وانا واقف على باب بناية البريد؟

ونفذت فكرتي ، وخرجت تتهاوى بقامتها الهيفاء ، فاقتربت منها وحييتها بأدب ، فردت التحية باسمة .

وشرعت في الحديث معها ، فاثنيت على جمالها ، وشجعني سكوتها، فسألتها عن اسمها ، فأجابتني ثم طلبت مني أن أعود الى داري لأن مرافقتي لها لا تناسب سمعتها ، فرجوتها ان تسمح لي بانتظارها في اليوم التالي ، فلم ترفض

وغدوت ارافقها كل يوم ، بعد أن تخرج من عملها ، مربعتين أو ثلاث مربعات ؛ الى أن تطلب مني أن أتركها .

ولج بي العشق ، فدعوتها مرة الى مرافقتي للنزهة في يوم من أيام الاعياد فقالت :

اني أتمنى ذلك من صميم قلبي ، ولكن أهلي لن يرضوا ،

وأنا إلا أخالف أوامر والدي .

فقلت :

ـ وما العمل إذن ؟ أأقضي بقية عمري وأنا أنتظرك كل يوم على باب البريد ، فارافقك دقائق ثم نفترق ؟

فوقفت قليلا ثم قالت :

ـ لماذا لا تصحبني الى داري ، فاعرفك بأهلي ، وأعرفهم بك على أنك خطيب رسمي لي ، فتتمكن هكذا من زيارتي ومن دعوتي الى النزهة متى أردت ؟

وطاب لي هذا التدبير ، فقد أصبحت مغرماً بها إلى آخر ما يكون الغرام

ومشيت الى جانبها ، وأنا أكاد أطير من الفرح ، واتسع أمامي المجال ، فرحت أسمعها كلمات الحب والهيام ، واتسع أمامها المجـال ، فألقت علي الأسئلة التي تتعلق بحياتي ، وكنت أجيبهـا معتمداً على المبالغة في تفخيم حسناتي ، فأخبرتها اني فتى كريم كل الكرم فما من فقير في المدينة الا وله من جيبي مستودع يغرف منه ما شاء متى شاء ولولا الراتب الباهظ الذي أتناوله شهرياً لما وفرت شيئاً من المال ، واني فتى صادق منتهى الصدق ، لا أعرف ما هو الكذب ، فلو جاءني من يعرض علي صولجاناً على ان أكذب كذبة بريئة لا تضر بأحد ، لنفرت من أبهة الملك وفضلت عليها الفقر .

وسألتها عن الفضيلة التي تؤثرها في الرجل فأجابتني

اني أغفر للرجل سائر نقائصه ما خلا الجبانة ، ويظل الفتى ينعم باحترامي الى أن تبدو منه ظاهرة من ظواهر الخوف ، فيسقط مقامه من قلبي كائناً من كان .

فابتسمت ابتسامة راضية وقلت :

ـ اني مثلك يا آنستي في النفور من الجبانة والخوف ، وليس من يقدّر الشجاعة ويمجد الجرأة كما أقدّرها وأمجدها . وثقي اني مثال الشجاعة والجرأة والاقدام ، ولا أخاف أحداً على وجه الدنيا . وحوادث بطولتي أشهر من أن تعرف . ولا أزال أذكر انني صارعت ذئباً وأنا في الثامنة من سنواتي . وقد طردوني من المدرسة التي كنت أتعلم فيها لانِي تشاجرت انا ورفاقي وكانوا خمسة ، واستطعت وحدي أن ادوّخ منهم ثلاثة وهرب الباقيان ، ثم كبرت و ...

فقاطعتني بقولها :

ـ لقد وصلنا :

ودخلنا البيت ، والحياء يرافقني ، فقد كانت تلك ، المرة الأولى التي أدخل فيها أحد البيوت ، عاشقاً

وجاءت امها ، فعرفتني بها ، فاهتمت بي اهتماماً زائداً ومضت ترحب بي ترحيباً متواصلا . ودعتني الى غرفة الاستقبال

لم تكن الغرفة ثمينة الرياش ، ولكنها مرتبة ترتيباً يدل على ذوق لطيف ، وكان لها ثلاث نوافذ كبيرة ، واحدة منها تطل على

حديقة في مؤخرة الدار تؤدي الى الشارع المقابل

وعادت الفتاة بعد ان ارتدت ثيابها البيتية وجلست قبالتي.

ولذ لي الحديث، اذ كانت فتاتي مصغية أتم الاصغاء

وقامت أمها، فأتت بصينية عليها فناجين الشاي، وإلى جانبها صحون المربيات المختلفة، فضلاً عن قطع الحلويات الصغيرة، ووضعتها على مائدة وجلسنا حولها نأكل

وسمعنا الباب الخارجي ينفتح فقالت الصبية:

- ها والدي، فهذا ميعاد قدومه

فخفق قلبي خفقاناً غريباً، انما عدتُ فهدأت اعصابي، وقلت لنفسي:

- لقد اعتراني كثير من القلق وهي تعرفني الى أمها، وهذه امها الآن ترمقني بعناية ما بعدها عناية، ولا شك ان حالتي من والدها ستكون كذلك. ان القضية قضية وهم فحسب. علي ان اتشجع وأقابل والدها مقابلة رزينة تبرهن له على ان الفتى الذي سيكون صهره، هو فتى اجتماعي.

وفتحت الصبية الباب

فدفعني الفضول الى رؤية وجه الأب قبل أن يدخل، فتقدمت خطوتين وسددت نظري.

يالهول ما رأيت!

أن والدها هو سائق الحافلة الكهربائية صاحب الشاربين الكبيرين!

ان والدها هو الرجل الذي لو استطاع امساكي لما تردد دقيقة واحدة في دق رقبتي .

وتمثلت نفسي بين يديه وقد قبض على مخنقي وآخذ يضغط

وتخيلت ذاتي مطروحاً على الارض وهو يدوسني بغضب .

عادت الى فكري ، إذ ذاك ، دفعة واحـدة ، مواقفي معه ، فأيقنت ان اللحظة التي تمر علي الآن ، هي آخر لحظاتي في هذه الدنيا الفانية .

لا وقت للندم ولا لما يشبه الندم

عليّ ان اسلم بجلدي

لئن خسرت هذه الفتاة التي عشقتها ، ففي وسعي ان أجـد غيرها . بيد اني اذا خسرت حياتي فاين أجد سواها ؟

وخرجت الفتاة من الغرفة الى البهو لتستقبل والدها

ولحقت بهـا أمها

فدرت بعيني في انحاء الغرفة .

ان النافـذة التي تفضي الى الحديقة مفتوحة . وفي مؤخرة الحديقة الباب الذي يودي الى الشارع ، وهو مفتوح ،لحسن الحظ

وقفزت من النافذة الى الحديقة .

وركضت الى باب الحديقة

لقد ابتعدت عن الخطر

ها أنا في الشارع

فان لحق بي والدها هربت

ولكن ما لي انتظر ان يلحق بي ؛ علام لا أهرب منذ الآن ؟
وركضت

وكنت ، كلما تقدمت خطوة ، زالت عني قبضة من العشق ، فما وصلت الى داري حتى كنت قد أصبحت كأنني رجل جديد

ومنذ ذلك اليوم تركت القهوة التي كنت اذهب اليها ، وامتنعت عن مشترى طوابع البريد ، فان اضطررت الى ارسال مكتوب ، ارسلته بلا تمغة ، وان رأيت رجلاً يحمل شاربين ، كائناً ما كان حجمها ، أسرعت فهربت منه ومنها ...

. . .

والتفتُّ الى الصديق الثالث « سليمان » وقلت له :

ـ وأنت ؟ هل جرت معك حادثة غريبة من حوادث العشق ؟

فأجاب :

ـ ان حادثتي بسيطة

ـ فقلت هاتها

قال :

ـ لم أكن أنا الذي لاحقها بحبه ، بل هي التي ظلت تسعى الى ان أوقعتني في شراكها . كنت مستخدماً في أحد الحوانيت التجارية ، وكانت تأتي مرة او أكثر في الاسبوع لتشتري ماتحتاجه فتتظاهر بالحيرة في اختيار الاصناف ، وتبدأ بمحادثتي عما لا علاقة له بالتجارة . وكنت أجاريها كما يجاري المستخدم الزبائن . غير أني بعد ان شاهدت شغفها بي ، أصبحت أفرح لمجيئها ، وأتفرغ للعناية بها . وطلبت منها يوماً صورتها ، فلم تضن بها علي ، ودعوتها للنزهة فرفضت ، وافهمتني انها ليست كالفتيات اللواتي قد أكون عرفتهن. فزاد ذلك في غرامي بها .

وما برحت تجيء الى المحل وتروح منه ، حتى علمت منها صراحة اني اذا كنت اطمع بحبها ، فعلي ان اسلك لذلك «الطريق « الرسمية » التي يسلكها الناس . علي ان أذهب الى بيت اهلها ، فأعلن رغبتي في خطبتها ، فيبيح لي اذ ذاك والدها زيارتها في أيام

معينة ، وساعات محدودة كما يفعل سائر الشبان مع عرائسهن .

وهكذا فعلت

وتم الاتفاق بيني من جهة ، وبينها وبين والديها من جهة ثانية على أني استطيع ان ازورها مساء الأحد ومساء الأربعاء من كل اسبوع . أما بقية الايام فلا

ورضيت بهذا الشرط ، ووجدت فيه وسيلة طيبة لابقاء شوقي الى رؤيتها على ضرامه .

كانت عائلتها فقيرة : فبيتها في طرف من اطراف المدينة ، أثاثه خفيف ، وجدرانه متهرئة ، وفي مؤخرته فسحة كبيرة تغمرها الاعشاب ، يمكن لمن أراد ان يتمشى فيها ذهاباً واياباً ، كأنه في حديقة عمومية بعيدة عن الترتيب .

وذهبت أول أربعاء ، فاستقبلتني هي ، واستقبلني أهلها بالترحاب وما كاد يستقر بي المقام ، حتى طلب والدها من أمها أن تعد لي القهوة ، فقامت الى المطبخ ، وعادت بعد ثوان لتقول له أن « علبة السكر » فارغة ، فمد الوالد يده إلى جيبه ثم اخرجها وليس فيها بارة واحدة ، فحك رأسه ولاحت على وجهه امائر الحزن والتأثر وقال :

ـ اطلبي من الجيران « طبخة سكر » وفي الشهر القادم ، إن شاء الله نردها لهم .

فأشفقت على حالتهم تلك ، أعم الاشفاق ، ووقفت وقلت :

ـ اسمحوا لي ان اذهب ، فأشتري السكر اللازم
فدمعت عينا الام فرحاً وقالت :
ـ لا تزعج نفسك ، اعطني لأشتري انا
فانتشلت من محفظتي خمس ليرات استلمتها مني وغابت .
وشربنا القهوة .
ودعتني الفتاة الى التمشي في حديقة الدار . وكنت أنا أنتظر مثل هذه الدعوة لأتمكن من الاختلاء بها ، وإسماعها عبارات الوجد والهيام .
لقد نسيت ان اقول لكم انها لم تكن الابنة الوحيدة ، اذ كان لها خمسة اخوة كلهم اصغر منها ، وكان عمر كبيرهم لايتجاوز عشرة اعوام .
وخطوت واياها الخطوات الاولى في الحديقة ، فجاء اخوها الاكبر ، فامسك بيدها ، فتضايقت منه . وشعرت هي بذلك فأشارت الي اشارة فهمت منها ان من الواجب ان ارشوه ليتركنا
فبسطت له كفي ، وفيها نصف ليرة وقلت له :
ـ خذ ، فاشتر بها حلويات !
فتناولها بسرعة ، وتركنا في الحال
وبدأت بمغازلة فتاتي من جديد
فاذا اخوها الثاني امامنا
فمددت يدي الى جيبي ، واخرجت منها نصف ليرة اخرى ،

وقدمتها له قائلا :

ـ هذه لك

ـ فابتعد عنا

وهممت بان اواصل الحديث معها ، فسمعت وقع خطوات خلفنا ، فحولت وجهي ، فشاهدت اخاها ، الثالث ، فاسرعت ورشوته بمثل القيمة التي رشوت بها اخويه ، ووقفت انتظر شقيقها الرابع ، فلم يخيب املي ، اذ جاء راكضاً ، فاستلم مني حصته ومضى

وتنفست الصعداء وانا اظن ان فروض الرشوة قد انتهت ، اذ لم يبق الا شقيقها الاصغر ، وهو ـ بفضل اعوامه الثلاثة ـ يجهل قيمة المال

وشرعت اهيء نفسي لاظهار غرامي بفتاتي ، فرنّتْ ورائي قهقهة ، فالتفت ، فكان اخوها الصغير ، وتقدم مني ووقف بيني وبينها ، وامسك بيدي وبيدها ومشى معنا .

فامتدت اصابعي مرة أخرى الى جيبي وخرجت منها وفيها نصف ليرة جديدة ، وضعتها في كف الطفل ، وانا ارجو ان يعود من حيث اتى . غير انه ظل يتمشى معنا ، فحدقت الى اخته ، فعلمتْ مؤدى استفهامي فقالت لي همساً :

ـ ان هذا ولد طماع ، وهو لا يرضى بالقيمة التي يرضى بها اخوته ، ونحن نلقبه « باليهودي » لهيامه بالاصفر الرنان .

فسألتها بعيني عن القيمة التي يطلبها

فقالت :

- من عادته ان يساوم هو عليها

فحولتُ نظري اليه وقلت:

كم تريد :

فاجاب :

- ليرة كاملة

فلم ار ندحة من تقديم ما طلب

واستطعت اخيراً ان اتمشى انا وحبيبتي وحيدين في الحديقة .

وكان قد حان ميعاد رجوعي فودعتها وودعتهم وخرجت .

ولن اطيل الشرح : فقد تمكن العشق من فؤادي ، وامسيت ازور ذلك البيت ليلتين في الاسبوع ، وفي كل ليلة اضطر الى رشوة اخوتها . ناهيك عما اقدمه لأمها ، فقد كانت تدّعي مرة ان الابريق تحطم ، فاسلمها ثمن غيره ، ومرة اخرى ان الوقيد قد نفد ، فاشتري لها سواه .

والحق اني كنت اقدم لامها هذه المبالغ راضياً ، كما كنت اسلّم ، راضياً ، لكل اخ من اخوتها نصف ليرة

ولكن القيمة التي كانت تخرج من يدي ، دون رضاي ، هي الليرة التي يأخذها اخوها الاصغر الملقب باليهودي .

وجربت في زيارة من زياراتي ان اتغافل عن وجوده معنا ، فلم اعطه شيئا ، وتابعت الحديث مع اخته ، فقلت لها :

- غداً ان شاء الله ، متى تزوجنا ، فسنرتب بيتنا ترتيباً لطيفاً

فالتفت اخوها الى جهة الدار ، الى حيث كانت امه واخوته وصرخ مردداً كلماتي :
ـ غداً ان شاء الله ، متى تزوجنا ، فسنرتب بيتنا ترتيباً لطيفاً .
وراح يردد كل عبارة اقولها لاخته ، وكان يرددها بصوت عال يسمعه الجيران مها بعدوا
فاضطررت الى تقديم الليرة له،فابي ان يأخذها هذه المرة وقال لي:
ـ من الآن وصاعداً لا اقبل منك الا ليرتين
وبات راتبه مني ، منذ تلك الليلة ، ليرتين في كل زيارة .
قال احد الحكماء ان الغيرة ميزان العشق وصدق ، فقد شعرت يوماً بغيرة دفينة لم يكن لها من سبب الا اشتراط حبيبتي علي بعدم زيارتها ، الا في اليومين المعينين لي .
وقال لي شيطان الغيرة :
ـ علام لا تزورها الثلاثاء ؟
وما زال يهول علي القضية حتى نويت على تنفيذ ما اراد انما بدلاً من ازورها ، واتعرض لغضبها عبثاً ، فاني مراقب بيتها من البعيد ، فان شاهدت ما يدعو الى الريبة ، اقدمت
وجاء مساء الثلاثاء
فانتظرت الى ان عم الظلام ، وتشابهت الاشباح ، وقصدت الى الشارع المفضي الى دار حبيبتي ، ووقفت قبالة الباب في مكان لا يراني فيه احد .
ما اصعب التجسس :

كانت تلك اللحظات التي انقضت علي من امر ما شهدت . فاستخففت بذاتي على ظنوني وبينما أنا العن شيطان الغيرة ، اذا بالباب ـ باب الدار ـ دار حبيبتي ينفتح ، ويخرج منه شاب في مثل عمري تقريباً ، فترافقه عروسي لتودعه ، كما كانت ترافقني

أأنشل من جيبي المسدس وأطلق رصاصه عليه وعليها ،

صبراً ياهذا ! فقد يكون الرجل نسيباً لها ، وقد يدفعك تسرعك الى ما لا تحمد عقباه

ها هو يصافحها ، ويبتعد قليلا

ها هو يلتفت الى الوراء ، فتلوح هي له بيدها تلويح الوداع ، كما كانت تلوح لي .

وأوشكت أن أهجم عليه ، وأدفن مسدسي في صدره ، غير اني عدت فروقت دمي

أفضل ما أفعل هو أن أتبعه لأرى وجهه

ولحقت به وأنا أقول لنفسي :

ـ مادام لا يعرفني ، فلا بأس من أن أقترب منه

ولم يعد بيني وبينه الا ثلاث خطوات

أأنقض عليه وأضغط على عنقه الى أن تزهق أنفاسه ؟

صبراً ياهذا !

وسمعته يخاطب نفسه وهو مشغول عني :

- نصف ونصف ونصف ونصف : ليرتان - وليرة - الجملة ثلاث ليرات

فرجحت أن الرجل مجنون ، أو أنه يتمرن على الجنون ، إذ لا يمكن أن يكون كلامه هذا الا كلام رجل مصاب بعقله

وتابع حديثه لنفسه فقال :

- وهذه القيمة ، ليست بالقيمة الكبيرة ، فان حسبتها ، فلا لأنها تبهظ كاهلي . ولكن الذي يملأ قلبي غيظاً هو « اليهودي » الصغير الذي لا يرضى الا ليرة كاملة

فلما اتصلت بسمعي كلمات « اليهودي وليرة كامله » تغير رأيي في الرجل ، وأدركت أن وراء الاكمة ما وراءها كما يقول العرب ، ودفعني الفضول الى معرفة أمره

وتقدمت الى أن حاذيته ، فألقيت عليه التحية بلطف فردّ علي بمثلها ، وقلت له دون أن ألجأ الى الدوران :

- عذراً إذا عكرت عليك خلوتك ، لقد سمعتك تتكلم ، فادركت أن ذلك نتيجة إنشغال بالك بمشكلة . فان أحببت أن ترويها لي ، اجتهدت في مساعدتك على حلها - اذا كان في إمكاني - مع عدم تشرفي بمعرفتك قبل الآن .

وكأن الرجل كان ينتظر أذناً تصغي الى شكواه ، ولساناً يخفف بلواه فقال :

- أشكرك من صميم فؤادي على اهتمامك بي ، وأراني أثق

بك أتم الثقة على الرغم من أن هذه - هي المرة الاولى التي أشاهد فيها وجهك . ان قضيتي ليست من الغرابة بحيث تستاهل أن تروى : لقد خطبت فتاة تقيم في تلك الدار التي خرجت منها منذ لحظات . خطبتها بصوره غير رسمية ، فهي التي دعتني الى بيتها وعرفتني بأهلها ، مشترطة علي أن أزورها مرتين في الاسبوع فقط : الثلاثاء والجمعة . وما في هذا ما يدعو الى القلق ، فتلك عادة النساء . ولكن المسكينة ياصاح لها خمسة أخوة ، ولا بد لي في كل زيارة من رشوتهم واحداً واحداً ، ويتناول الأربعة الكبار مني ليرتين جملة أي نصف ليرة كل واحد . غير أن صغيرهم لا يرضى إلا ليرة كاملة ، وهم يلقبونه باليهودي لطمعه ، وأنا قابل بما يأخذه مني الاربعة ، وبما تأخذه مني أمها ثمن شاي تارة ، وثمن سكر تارة أخرى ، بيد أن القيمة التي تخرج من يدي وكأنها تخرج من دمي هي رشوة « اليهودي » . وقد حاولت ، الليلة ، أن أتغافل عن وجوده وكنت أتعشى أنا وأخته في مؤخرة دارها ، فكان يردد بملء صوته كل عبارة يسمعها مني ، فهل لك ياصاحب ، وقد تلطفت بمواساتي ، أن تبحث عن وسيلة أتخلص بها من اليهودي ؟

وكنت أنا أصغي إلى حديث الشاب ، ومع أن واجبي كان في مثل تلك الحالة ، ان أغضب ، فقد راقني حديثه ، ولم يخامر فؤادي أدنى شعور من الغيرة ، بل أحسست بشيء من الاشفاق عليه . وتأملني وهو ينتظر مني كلمة تعزية ، فلم أجد أفضل من اطلاعه

على الحقيقة ، فرويتها له باسهاب .

وهز المسكين رأسه وقال :

ـ إذن أنت هو العاشق رقم ١ وأنا رقم ٢

قلت .

ـ هذا ما يظهر

فتوقف عن المشي قليلا ، والتفت إلي وقال :

ـ أنت تزورها نهار الأحد والاربعاء ، وأنا نهار الثلاثاء والجمعة ، ولا يزال في الاسبوع ثلاثة أيام ، فما رأيك إذا رصدنا دارها غداً ، لنرى من هو العاشق الآخر ؟

فأجبت :

ـ كما تريد

واتفقنا على سائر التفاصيل

. . . . .

كان الموضع الذي كمنت فيه أنا الى يمين منزل الحبيبة ، أما العاشق رقم ٢ فكمن الى اليسار

ولم يطل الانتظار فخرج ، بعد دقائق ، شاب ترافقه عروسنا وابتعد عنها بعد أن أشارت اليه إشارة الوداع

وتركت مخبئي وانضممت الى العاشق رقم ٢ وسرنا وراء مزاحمنا العاشق رقم ٣

وكان علي أنا أن أبدأ الحديث معه ، بصفتي أقدم الاثنين

عشقاً . فحثثنا الخطى حتى حاذيناه ، وحييته فلم يرد علي ، فعرضت عليه مواساته ، فتأخر الى الوراء حتى أصبح ظهره الى الجدار وقال :

– اذا كنتما تنويان مشاجرتي ، فاستعدا فاني كفوء لكما

وهيأ قبضته للضرب .

فتقدم مني العاشق رقم ٢ وقال لي :

– دعه لي

وابتدأت اللكمات بينهما ، وما هي الا ثلاث دورات حتى كان العاشق رقم ٣ منهوك القوي

فساعدناه حتى وقف ، وذهبنا به الى مقهى قريب حيث اعتذرنا له عما أصابه ، وأطلعناه على قضيتنا فصاح :

– ويْلمّها ! : لقد اشترطت علي أن أزورها مرتين في الاسبوع الاثنين والسبت ، وقد شرعت بزيارتها منذ مدة قريبة . وكان لا غنية لي ، اذا أردت مكالمتها على حدة ، من رشوة أمها وأخوتها كما تعلمان . وكان « اليهودي » يأخذ مني كل مرة ليرة كاملة

ثم تنفس الصعداء وقال :

– بقي في الاسبوع يوم واحد ، فهل تريدان أن نعرف من هو العاشق رقم ٤

فوافقنا جميعاً .

واتفقنا على الاجتماع في مكمننا ، خارج الدار مساء الخميس وحانت الليلة

وخرج الخطيب الأخير ، فاذا هو شاب قصير القامة ، نحيف البنية ، لا يزن أكثر من أربعين كيلو

فقال العاشق رقم ١ :

ـ هذا هو مزاحمنا ، لا أعتقد أنه يستحق أن يكون رقمه ٤ وإذا دعوناه العاشق رقم ٣ ونصف ، فلا نكون ظالميه .

فقال العاشق رقم ٢ :

ـ حقاً ، إن جسمه صغير ، وقامته ضئيلة

فقال العاشق رقم ٣ :

ـ لقد أنصفت الفتاة ، فلا تنسوا أنها تستقبله في يوم واحد فقط في الاسبوع ـ بينما تستقبل كلا منا في يومين .

وعاد العاشق رقم ١ فقال :

ـ ولكن ... أيأخذ أخوها « اليهودي » منه تعرفة كاملة أم نصف تعرفة ؟

• • •

والتفت إليّ الزميل « سليمان » صاحب هذه القصة الغريبة وقال لي :

ـ ها قد سمعت أغرب ما جرى معنا من حوادث العشق . وقد جاء دورك أنت ، فهات :

فقلت له :

ـ لن تسمع مني شيئاً ، لقد طلبت منكم أن ترووا لي قصص غرامكم ، وقصدي أن أضحك القراء عليكم ، وقد نلت قصدي ، فهل تعتقد إني من البساطة بحيث أجعل نفسي أضحوكة للقراء كرمى لـكم ؟

أتريد الحق ؟

ان جميع الناس يحق لهم ان ينتقدوا العشاق ، ويهزأوا باقوالهم واعمالهم ما عداي

ان هؤلاء المساكين – العشاق طبعاً – قد وفروا عليّ مبالغ لا بأس بها من المال ، فضلا عن انهم متعوني بساعات طيبة لا يمكن ان انساها .

كان رفاقي يقضون لياليهم اما في دور التمثيل ، وكثيراً ما تكون السجون أفضل منها اذا كان التمثيل بليداً ، وإما في المقاهي ، وفيها ما فيها من الضجة التي تبث البلادة في الأذهان .

أما أنا ، فكنت ، بعد الفراغ من عملي في التحرير ، اتبع العشاق ، وأتسمع الى سخافاتهم الى أن يتولاني التعب ، فأعود الى فراشي .

كنت أركب أول سيارة عمومية تمر أمامي ، فأدور بنظري في مقاعدها ، فان شاهدت شاباً وصبية عاشقين ، ظللت فيها ، وجلست وراءهما في المقعد ان كان فارغاً ، والا قربهما ، إن كان مشغولاً

ثم أتظاهر بمطالعة جريدة ، فان لم تكن في يدي ، تظاهرت بالغفلة . ورحت أصغي الى ما يقوله لها وما تقوله له .

والعشاق يحسبون أنفسهم دائماً في دنيا خاصة ، فهم يتشاجرون على مسمع من الناس دون أن يصبغ الحياء وجوههم ، ويمدون عدة

المستقبل كأن الذين حولهم خشب مسندة

وكنت ، اذا ضاقت في وجهي سيارات النقل تحولت الى الحدائق العمومية وهي ملتقى الذين كوى الوجد أضلاعهم فاتبعهم ، واجلس حيث تصل الي أحاديثهم واضحة .

فسمعت أغرب الاقسام على أغرب الوفاء

وسمعت عبارات التهديد بالانتحار تتدحرج من الشفاه ، كأنها شربة ماء ، وكنت أكر في اليوم التالي على اعمدة الجرائد ، لاطالع فيها تفاصيل ذلك الانتحار فلا القي شيئاً . وعلمت بعد الاختبار أن التهديد بالانتحار حيلة من حيل العشاق الملاعين .

وسمعتُ . . .

وسمعتُ . . .

ولا جلد لي على إعادة ما سمعت ، فمن أراد أن يعرفه فما عليه الا اتباع الطريق الذي عبدته للناس ، فانه واجد فيه مايغنيه عن الانصات للمهرجين .

. . . . .

كنت يوماً مسافراً الى مدينة في الداخل، تبعد عن العاصمة ساعات في القطار. ولم يكن في القاطرة التي أنا فيها غير شاب وصبية - عاشقين من كل بد - فقلت لنفسي:

- اذا جلست قربها امتنعا عن الكلام، وفاتتني هذه الفرصة الثمينة فما العمل؟

وخطرت لي فكرة جديدة:

سأتظاهر بالطرش.

وتقدمت من الشاب، وسألته عن اسم البلدة القادمة التي سيمر عليها القطار. فأجابني، فوضعت كفي على أذني وقلت له:

- أرجوك أن ترفع صوتك، فاني أطرش

فرفع العاشق صوته وجعل يردد اسم البلدة، وأنا أقرب رأسي من فمه ولا أفهم عليه، وأخيراً قلت له:

- من فضلك، اكتب اسمها على هذه الورقة

ففعل..

واستأذنته في الجلوس قبالته فرضي

وجازت عليه الحيلة، فكان يتحدث الى حبيبته، وتتحدث هي اليه كأني غير موجود.

وكنت بين الحين والآخر اسأله بعض الأسئلة، فيأخذ بالصياح

الى أن يفرجها الله علي ، فاسمع . وما وصلنا الى حيث نقصد حتى كان قد أصيب ببحة عميقة .

وسمعت في تلك السفرة ـ وقد دامت خمس ساعات . أغربَ وأسخف ما يستطيع أن يسمعه مخلوق

كان حديثهما بادئ بدء شائقاً نوعاً ما ، ثم شرع يسف ثم انتهت جعبتهما من « الرومانطيقية » فأخذا يتكلمان عن الطقس ، ثم ملأ منه

ومررنا بحقل فيه بقرة ترعى

وأراد العاشق أن يسلي حبيبته فسألها :

ـ أتحبين البقر ؟

فأجابته :

ـ نعم ، وأنت ؟

فقال :

ـ إذا كنتِ أنت تحبينها ، فانا كذلك

وصار ذلك شأنه ، فان مررنا بنهر او بجبل سألها إذا كانت تحب النهر او الجبل فتجيبه : اذا كنت أنت تحبها فانا أيضاً .

وأوشك ان يطلع روحي ببلاهته وبلادته ، و كدت أصرخ طالباً منه ان يغير هذه النغمة ، ولكني تذكرت ، على وقت ، إني رجل أطرش ، فسكت .

. . .

اعلنت مرة في اذاعة اثيرية يومية كنت اتولى ادارتها الفنية اني نظمت « دائرة وجدانية » غايتها حل المشاكل التي يتعرض لها العشاق ، وان هذه الدائرة تجيب على الرسائل التي تستلمها ، وتذيع منهـا على السامعين ما ترى فيه فائدة عمومية بعد ان تغفل اسم مرسلها .

وانهالت علي الرسائل ، فكأن الامة برمتها كانت عاشقة وليس بينها من خلي الا انا .

وكنت اجيب على كل رسالة ، واصفاً الدواء الوجداني الذي اظنه مفيداً لصاحب الداء الوجداني .

ولو كان القارىء يستحق ان اتحمل لاجله عناء البحث ، لفتشت عن هذه الرسائل فانها لا تزال بين اوراقي ، وفيها من معضلات القلوب والاحاسيس طرائف وأهازيل .

فهذه فتاة في ربيعها الثامن عشر قد عشقت ممثلاً اميركيا ، فهي ترغب مني ان اسهل لها عنوانه ، وان ادلها الى الطريقة التي توقعه في هواها .

وهذا شاب في مقتبل العمر تعلقت به امرأتان : اولاهما غنية قبيحة ، والثانية جميلة فقيرة وهو حائر بينهما

وهذه امرأة ...

وهذا رجل ...

الى آخر ما هنالك من النساء والرجال

على ان اعجب ما استلمت ، ذلك الحين ، رسالة من فتاة تسألني اذا كنت من المتشائمين ، وترجوني ان اجيبها على سؤالها لتعود فتعرض علي مشكلتها .

فاجبتها اني رأيت النور في اليوم الثالث عشر من شهر نيسان من سنة كذا ، وان عندي غراباًاسود اربيه واعتني به لأتصبح به كل يوم

ووردت علي رسالة ثانية منها ، بعد ذلك وفيها رسمها .

اما مشكلتها فهي هذه :

انها سيئة الحظ الى آخر الحدود

فهي شؤم على الشبان الذين يعشقونها

ان اول خطيب تقدم منها اصابته رصاصة طائشة ، فقضت عليه .

ودهست سيارة شحن خطيبها الثاني فمات في الحال

اما الثالث فقد انتحر بلا سبب

وقد اشتهر شؤمها الآن بين معارفها ، فلا تعرف شاباً حتى تتصل به اخبار سابقيه فيتركها ويهرب

وما دمت انا لست متشائماً كما اخبرتها في رسالتي فهي تعرض علي ان اعشقها لتبرهن ، بواسطة سلامتي ، على ان ما اصاب الذين عرفوها هو من عمل الصدف ليس الا .

فكان جوابي لها على رسالتها تلك : ان مهامي الادبية لاتسمح لي ان البي رغبتها الكريمة مع رغبتي الحارة في تلبيتها ، واني ،

دايلا على حسن نيتي ، قدمت رسمها اللطيف الى صديق لي يائس من الحياة ، واني ما برحت اغريه حتى رضي بان ينوب عني . وان دوري من حل مشكلتها قد انتهى عند هذا الحد ، فلتفعل بعد ذلك ما تريد .

وقد كنت صادقاً فيما قلت ، وكان ذلك الصديق من الذين ينظرون الى وجه واحد من الحياة : الى الوجه المليء بالمصائب ، ولما اطلعته على القضية - قضية الفتاة - استبعد ان تكون صادقة، وما فتأت الح عليه حتى اذعن .

وقابلها . وعشقها وعشقته . فسررت انا لذلك كل السرور وقدرت ان تشاؤمه لن يلبث ان يزول . ولكن المسكين لم يتمكن من التملص من شؤم حبيبته ، فقد تزوجها ، غفر الله اساءتي اليه فلم اكن انوي له مثل هذا الشر ! وكان زواجه بها اكبر براهين شؤمها

. . .

وتكاد تكون أساليب العشاق واحدة ، فكأن كل واحد نسخة طبق الأصل عن كل واحد

كل عاشق ، اذا صدقنا كذبه ، لا يغمض له جفن في الليل تفكيراً بحبيبته

وظلت هذه الكذبة تقرع أذني حتى صدقتها ، فكتبتُ مرة الى وزير كبير اعرض عليه هذا الاقتراح :

مادام العشاق لا يستطيعون النوم مساء فلماذا لا توظفهم الحكومة حراساً ؟ انهم بهذه الذريعة يفيدون بلادهم فائدة جليلة وتصبح ساعات الليل عليهم قصيرة ، إذ يملاؤونها بالعمل ، فضلا عن أن سهرهم يضطرهم الى النوم نهاراً ، فنتخلص هكذا من رؤيتهم .

والظاهر ان ذلك الوزير الخطير لم يعر اقتراحي ما هو جدير به من الاهتمام ، فأضاع على الوطن فرصة ثمينة ، ليست الاولى التي يضيعها كبار الموظفين

. . . .

من جيراني - رجل في السبعين من عمره ، اظل واياه على خلاف دائم ، لا لأني اتعدي على حقوقه ، او لأنه يتعدى على حقوقي ، بل لأنه ناقم على الانسانية الحاضرة ، اوبعبارة اضبط ناقم على المدنية الحاضرة . وهو يقسم الناس الى جيلين : الجيل القديم وحضرته رمز له وهو جيل رضي الله عنه ، والجيل الجديد ويعتبرني انا رمزاً له وهو جيل دليله الشيطان .

وقد جربت مراراً ان ابين له خطأه . فأطلعته على بعض حسنات الحضارة التي ننعم بها ، فكان يغمض عينيه ويحرك يديه كالذي يبتعد عن شيء يكرهه ويأنف منه .

ولا اذكر اني ذهبت الى داره خطرة ، الا ادار وجهة الحديث الى حيث يبغي وراح يقرعني اعنف تقريع وانا ساكت انظر اليه نظرة المتهم البرى الى القاضي الظالم .

وهذا مثل من جلساتنا :

يكون الطقس حاراً ، فاحاول ان اوسع طوقي ، فأفك الزر الاعلى من قميصي ، فيتاملني باستهزاء ويقول لي ساخراً :

- هذا بعض ما فعلته مدنيتكم : انها جعلت حول اعناقكم قيوداً من النسيج تشد على مخنقاتكم ، وانتم لانحطاطكم تقبلون بها ولا تحاولون ان تنجوا منها او ان تسعوا لتخفيف ضغطها عليكم.

ان مدنيتكم تجرعكم السم الزعاف بكؤوس جميلة ، وانتم لحماقتكم ، تحدقون في الكؤوس فيعجبكم منظرها ، فتتناولونها متغافلين عما فيها.

فاقاطعه بيدي واقسم له اليمين الغليظة اني لست انا الذي اخترع المدنية الحاضرة ، فلا يبالي بقسمي ويمضي قائلا :

ـ لقد تغلغل رقيكم . . . ، كالداء الوبيل في كل مرفق من مرافق حياتكم ، ولم يعد امامكم فسحة ـ مهما كانت صغيرة ـ لترجعوا الى نفوسكم ، وتتمتعوا بما فيها من الكنوز . انكم تعيشون وكأنكم لا تعيشون . قف في اي شارع اردت ، وانظر فانك تجد الناس راكضين بعضهم وراء بعض بلا داع ، يجد واحدكم غيره راكضاً فيركض وراءه . هي عدوى الحضارة ، عدوى حضارتكم التي حولت الى سراب كل ما كان يمكن ان تتلذذوا به . خذ مثلا واحداً من ملايين :

تذهب الآن الى الحلاق ، الى المزين ، فتجلس على كرسي هزازة تدور كما تريد انت ويريد هو . وامامك مرآة وخلفك مرآة وعلى كل جانب مرآة ، وحولها الادوات ـ ادوات المدنية الحاضرة ـ فهذه تسخن الماء وتلك تجلخ الموسى ، وهاتيك تعد الصابون . وما هي الا لحظة قصيرة حتى يعلن الحلاق انتهاء مهمته ، وتمد يدك الى ذقنك ، فاذا هي ككفك ليس فيها شعرة ، ولا اثر لشعرة . لقد حلق المزين ذقنك دون ان تشعر انت ادنى شعور بذلك ، فهل احسست بلذة الحلاقة ؟ كلا ثم كلا ! ان المدنية الحاضرة هي التي منعت عنك هذه اللذة بواسطة آلاتها . اما جيلنا . جيلنا

القديم ـ فقد كان يشعر بلذة الحلاقة شعوراً عميقاً ، كان يدخل واحدنا الى دكان المزين ، ويجلس على مقعد ، ويشرع الحلاق بعمليته «منجراً» ذقن الزبون تنجيراً يسيل معه عرق الاثنين، فالاول ـ الحلاق ـ ياخذ اجرته حلالاً اذ انه تعب اشد التعب على ما قام به . والثاني ـ الزبون ـ يظل ثلاثة ايام او اكثر وهو يتذكر ان ذقنه محلوقة . تذكره بذلك ، الجراح التي في وجنتيه .

. . .

ذهبت الى جاري هذا ، وانا اكتب هذه الفصول ، لأعرف رأيه في العشق ، فصاح بي :

ـ العشق : العشق : : لقد مسختم العشق في الجيل الحاضر وحولتموه من معناه الحقيقي الى المعنى الذي راق لكم . لقد فعلتم فيه كما فعلتم في سائر الفضائل والعواطف التي تغمر قلب الانسان ان مدنيتكم حولت العشق الى سلعة من السلع المعروضة للانظار، فهي تشرى وتباع ، ولها محلات خاصة يرتادها الذين يبتغونها ، لقد مسخت سرعتكم العشق . فاصبح ما شئت الا عشقاً . ماذا يفعل عاشقكم اذا وقفت الصعوبات في وجهه ؟ انه ينتحر ، انه يسرع في الخلاص من محنته . اما في جيلنا ـ في الجيل الماضي ـ فلم يكن العشق هكذا ، كان العاشق يتحمل مصائب الحرمان راضياً كان يضحي في سبيل العشق بهنائه ، كان يبرهن على انه جدير بحب حبيبته . كان يظل عائشاً ليتعذب ، فان فاز فاز والا بقي

صابراً . هذه قصة عنترة طالعها ، تعرف كيف كان العشق . هل لك ان ترشدني الى رجل من رجالكم يحتمل بعض مااحتمل فارس بني عبس اكراماً امبلة ؟ ان عنتركم الحالي متى لاقى ادنى صعوبة عمد الى تجرع السم ليستريح .

فقاطعته بقولي :

– ولكن لست انت ياشيخ من جيل عنتر . فقد مضى على موته اكثر من الف سنة

فقال

– وما يهمني ؟ هكذا كان العشق قديماً ، وهذا هو العشق وما تبقى فرجس من عمل الشيطان ...

. . .

ليست هذه الصفحات جميع ما كنت انوي ان اكتب عن العشق . انها بمثابة مقدمة فقط . ولا ينتظر القارىء الكريم النهاية فانا اضع الآن نقطة الختام

وليعذرني

ان السبب الذي يحملني على قطع الكلام هو سبب جوهري :

لقد عشقت من جديد

وكل مالدي من الوقت اريد ان اخصصه لحبيبتي .

فالوداع ايها القارىء والى اللقاء القريب ان شاء الله ...

تمت

بيني وبينك

والآن ، أيها القارىء ،

- وقد إنتهيت من مطالعة كتابي -

ما رأيك ؟

إذا كنت ترى نفسك مغبوناً في اقتنائه ، فأفضل ما تستطيع عمله هو أن تقوم بدعاية ذكية واسعة له بين أصدقائك ومعارفك ، ليشتروه ويجاروك في الخسارة التي تكبدتها ، فيخف أسفك . فليس من الانصاف ان تكون أنت - وحدك - الذي يدفع ليرة سورية ، ثمن هذه الترهات !...

فان عتبوا عليك مدعين أنك حاولت غشهم ، فلا تنس أن ترد عتابهم بالمثل القائل : « من ساواك بنفسه ما ظلمك »

المهم ، أن ترفض إعارة الكتاب لمن يطلبه منك - وسيطلبه الكثيرون - وهكذا يروج وينتشر ، وأشتهر بأني كاتب خفيف الظل ، طريف الفكرة ، رشيق الأسلوب - وهي حقيقة يؤكدها

الداعي لك بالخير

الياس قنصل

مؤلفات الياس قنصل — المطبوعة

الأسلاك الشائكة	شعر	نفدت	نسخه
العبرات الملتهبة	»	»	»
على مذبح الوطنية	»	»	»
السهام	» طبعة ثالثة . .	»	»
بسمات الفجر	شعر	»	»
لصوص الشرف	رواية	»	نسخها
على ضفاف بردى	»	»	»
صديقي أبو حسن	قصة	»	»
في سبيل الحرية	رواية	»	»
اصنام الأدب	دراسات نقدية .	»	»
البقايا	قصص	»	»
نساء	»	»	»

مؤلفات الياس قنصل — المعدة للطبع

فلسفة حمار	غالب أفندي المغلوب
كيف تركت التدخين	كان لي صديق
أحلام	العبقري المجنون
أوراق مبعثرة ـ جزآن	حنان
أصحاب المداس	بلاد الذهب
الوثيقة المزورة	مائة كيلو
الخنفشاري الحديث	بين معارك الثورة
رباعيات قنصل ـ جزآن	أبو البيانات
هـذا أنـا	عساف جعلص ـ ٣ أجزاء
مذكرات مسافر	أدب المغتربين

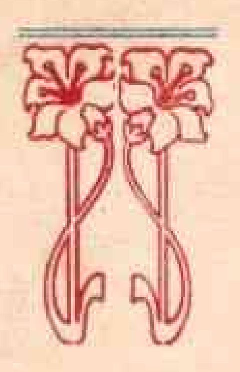
المطبعة العمومية بدمشق
شارع خالد بن الوليد ، هاتف ١٢٥١٥

من منشورات دار الرواد

		سعر
حضارة الطين	شاكر مصطفى	٢٠٠
بيني وبينك	〃	١٥٠
في ركاب الشيطان	〃	٢٠٠
ادبيات من الغرب	الدكتور ابراهيم كيلاني	١٠٠
تاريخ الادب العربي	الدكتور بلاشير استاذ الادب العربي في الصوربون	٤٠٠
محمد الامين بن هارون الرشيد	نسيب الاختيار	١٠٠
اعلام القصة الغربية ج١	هنري ودانا توماس	١٧٥
〃 〃 〃 ج٢	〃 〃 〃	٢٠٠
العقلية العربية بين الحربين	علي حاج بكري	٢٠٠
اعترافات الشيطان الازرق	محمد حاج حسين	١٥٠
مقابلات مع مكسيم جوركي	ف. ايفانوف	١٥٠
الاعصار	بوشكين	١٠٠
الاحزاب السياسية في سوريا	دار الرواد	٢٠٠
الحياة الحزبية في سوريا	محمد حرب فرزات	٢٠٠
آلام ابسكوبو	دانتزيو	١٧٥

ELIAS KONSOL

EL MUNDO
DE
LOS LOCOS



DAMASCO - SIRIA - 1955
IMPRENTA GENERAL